جامعة عبد الرحمن ميرة – بجاية.

كلية اللغات والآداب.

قسم اللغة العربية وآدابها.

مقياس فقه اللغة العربية السنة الأولى ل.م.د المجموعة 01

المحاضرة الثانية: نظريات نشأة اللغة الانسانية

تمهيد:

أصرّ علماء اللغة اليوم على إخراج مسألة البحث في أصل اللغة من مجال البحث اللغوي، وقد اختلفوا في موضوع نشأة اللغة الإنسانية الأولى قديما وحديثا، ومدى نجاعة دراسة مثل هذا الموضوع بين معارضين للبحث فيه إلى درجة التحريم، باعتباره موضوعا غير ظني لا يمكن التحقق من صحة وقائعه، وبين مؤيدين بل ومصرين على مثل هذه البحوث اللغوية التي تنبع من التراث المعرفي الذي يصب في صميم الدراسات اللغوية و ما يتعلق بها.

ولكن عندما ظهر ما يسمى بالدراسات اللسانية الحديثة (المدارس اللسانية) كان هناك انفصال بين علمين توأمين أحدهما يسمى (فقه اللغة) والثاني (علم اللغة)، كما مر معنا سابقا، وصار من السهل إخراج مثل هذا الموضوع من الأبحاث والدراسات التي تدخل تحت عنوان (علم اللغة) وإدراجه في الدراسات التي تسمى (فقه اللغة).

لذلك تم إدراج هذا الموضوع ضمن مادة (فقه اللغة)، بغض النظر عما تتضمنه هذه المادة من موضوعات يمكن أن تدرج في (علم اللغة) متابعة للبحوث والدراسات والأعمال العربية التي جاءت تحت عنوان (فقه اللغة) ولكنها كانت أقرب إلى فقه اللغة حسب المفاهيم والآراء الحديثة لهذا العلم .

وقد تعددت الآراء والفرضيات التي تفسر نشأة اللغة الإنسانية الأولى، من اعتماد المعقول والمنقول .

ومن أهم هذه النظريات (الفرضيات)، النظريات التالية:

نظرية الالهام والوحي والتوقيف:

تذهب هذه النظرية إلى أن الله الخالق أوحى إلى الإنسان الأول وأوقفه على أسماء الأشياء بعد أن علمه النطق، ولقد بدأت مشكلة البحث في أصل اللغة عند فلاسفة الإغريق من هذا السؤال: " هل يعبّر الاسم عن حقيقة الشيء المسمّى به بالطبيعة أم بالتواطؤ؟" وبعبارة أخرى: إذا نطقنا كلمة " شمس" فهل يستطيع كل سامع لها مهما يكن اللسان الذي يتكلّمه أن يفهم منه ما يفهمه العربي؟ وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراقليط (ت: 480 ق . م)، وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها **لامي** والفيلسوف **دونالد**. ومن علماء المسلمين في العصور الوسطى: أبو عثمان الجاحظ (ت 255 هـ) وأبو الحسن الأشعري (ت 324 هـ) ، وأحمد بن فارس (ت 395هـ) ، الذي يرى أن لغة العرب توقيفية .

ويبدو من قول ابن فارس أن اللغة العربية هي لغة آدم عليه السلام، لأنه ذكر أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته ب300سنة، وقد ذكر السيوطي عن ابن عساكر في التاريخ عن ابن عباس، أن آدم (عليه السلام) كانت لغته في الجنة العربية .

قال عبد الملك بن حبيب : " كان اللسان الأول الذي نزل به آ دم من الجنة عربيا ، إلا أن بعد العهد وطال صار سريانيا، وكان يشاكل اللسان العربي الا أنه محرف.... وبقي اللسان في ولد أرفشذ بن سام إلى أن وصل إلى يشجب بن قحطان من ذريته وكان باليمن، فنزل بنو إسماعيل، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي .

ويرى علماء العبرانية وتابعهم كثير من مشاهير علماء النصرانية وغيرهم: أن اللغة العبرانية هي اللغة التي فتق الله بها لسان آدم عليه السلام في ولده شيث حتى انتهت إلى إبراهيم عن طريق عابر بن سام، ويستدلون على ذلك بعدد من الأسماء الواردة في حديث الخلق، وما بعده إلى الطوفان مثل آدم وعدن وفيشون وجيجون وغيرها أسماء عبرانية .

أدلة أصحاب التوقيف:

يعتمد علماء الغرب المؤيدون لهذه النظرية على ما ورد بهذا الصدد في العهد القديم من الإنجيل" والله خلق من طين جميع حيوانات الحقول، وجميع طيور السماء، ثم دعا آدم ليرى كيف يسميها. وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان. فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة، ولطيور السماء ودواب الحقول"

وهذا النص لا يدل على شيء مما يقوله أصحاب هذه النظرية بل يكاد يكون دليلا على عكس النظرية .

ويرى الباحث "توفيق شاهين" أن أبا عثمان الجاحظ ارتضى هذه النظرية حيث قرر أنّ الله سبحانه وتعالى أنطق نبيه إسماعيل بالعربية دون سابق تمهيد أو تعليم، كما فطره على الفصاحة على غير النشوء والتمرين.

ويضيف القائلون بالتوقيف إلى ذلك ثلاثة وجوه :

1- أنه سبحانه وتعالى ذم قوما في إطلاقهم أسماء غير توقيفية في قوله تعالى: "ان هي الا أسماء سميتموها أنتم ..." وذلك يقتضي كون البواقي توقيفية.

2 – قوله تعالى :" ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم " والألسنة اللحمانية غير مرادة لعدم اختلافها. ولأن بدائع الصنع في غيرها أكثر. فالمراد هي اللغات

3 – وهو عقلي، فلو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج في التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة، يعود إليه الكلام، ويلزم إمّا الدور أو التسلسل في الأوضاع وهو محال فلا بد من الانتهاء إلى التوقيف.

وبناء على كلام أهل التوقيف، لا يجوز قلب اللغة مطلقا: فلا يجوز تسمية الثوب فرسا مثلا.

وقدم 'ابن جني' تفسيرا آخر هو أن الله تبارك وتعالى: علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية والسريانية والفارسية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات، فكان هو وولده يتكلمون بها، ثم إنّ ولده تفرقوا في الدنيا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها عهدهم بها.

أما الخفاجي فيذهب إلى أن التوقيف الإلهي مستند إلى لغة سابقة له يفهم بها المقصود بافتراض أنّ المواضعة تقدمت بين آدم والملائكة .

2. نظرية محاكاة أصوات الطبيعة :_

وتذهب إلى أن أصل اللغة محاكاة أصوات الطبيعة، كأصوات الحيوانات وأصوات مظاهر الطبيعة، والتي تحدثها الأفعال عند وقوعها، ثم تطورت الألفاظ الدالة على المحاكاة، وارتقت بفعل ارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة.

وذهب إلى هذه النظرية " ابن جني" قديما ، و"ويتني " حديثا في القرن التاسع عشر، وليست هذه النظرية من اختراع "ماكس ميلر"، كما أشار بعضهم بل عرفها 'ابن جني' ، وذكر أنه نقله عمن سبقه، مما يدل أنه كان مذهبا شائعا ومقررا حيث يقول: وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها، إنّما هو الأصوات المسموعة كدوي البحر وحنين الرعد، وخرير الماء ، وشحيح الحمار ونعيق الغراب .....ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد".

وقد كان ابن جني معجبا بهذه النظرية ، حيث أفرد لها بابا في كتاب الخصائص سماه (باب في امساس الألفاظ أشباه المعاني)، قال فيه " ولو لم يتنبه على ذلك إلاّ بما جاء عنهم من تسميتهم الأشياء بأصواتها، كالخازباز لصوته، والبط لصوته ونحو ذلك قولهم حاحيت، وعاعيت، هاهيت، إذا قلت حاء، عاء، هاء، وقولهم: بسملت، هللت، حوقلت. كل ذلك أشباهه انما يرجع اشتقاقه إلى الأصوات والأمر أوسع "

ولهذا النظرية ما يؤيدها في الواقع؛ فالطائر المسمى في الانجليزية CUOKOO إلى جانب الهرة المسماة "مو" في المصرية القديمة.

ويذهب بعض الباحثين الى أن هذه النظرية هي أقرب النظريات إلى الصحة وإلى المعقول، وأكثرها اتفاقا مع طبيعة الأمور وسنن النشوء .

ومن أهم أدلتها :

– أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الإنسانية، تتفق في كثير من وجوهها، مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل؛ فقد ثبت أنّ الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام، يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة أصوات الطبيعة، فيحاكي الصوت قاصدا التعبير عن مصدره، أو عن أمر يتصل به، كما ثبت كذلك أنه في هذه المرحلة وفي بداية مرحلة الكلام يعتمد اعتمادا جوهريا في توضيح تعبيره الصوتي ، على الإشارات اليدوية والجسمية.

نقد النظرية :

وجه إلى هذه النظرية انتقاد أساسي، فهي من جهة تعجز عن تفسير مبدأ كيفية (حكاية الأصوات) في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أية علاقة بين معناها وصوتها، فما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه مثلا؟

3 – نظرية الاتفاق والمواضعة والاصطلاح:

إنّ هذه النظرية تقرّر بأنّ اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع، والاتفاق وارتجلت ألفاظها ارتجالا، ولقد مال كثير من العلماء والمفكرين إلى هذه النظرية، منهم: الفيلسوف اليوناني ديموكريط وأرسطو إلى جانب المعتزلة، و نادى بها من المحدثين : آدم سميث الانجليزي.

وليس لهذه النظرية أيّ سند عقلي أو نقلي أو تاريخي، بل إنّ ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية، وعهدنا بهذه النظم، أنها لا تخلق خلقا، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها، إضافة إلى ذلك فالتواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون فبأيِّ لغة تواصل هؤلاء ؟

هذه النظريات هي أشهر النظريات وهناك نظريات أخرى نكتفي بذكرها دون تفصيل ومنها:

1 – نظرية الأصوات التعجبية العاطفية (نظرية pooh _ pooh)

2 – نظرية الاستجابة الصوتية للحركة العضلية (نظرية yo _he –ho)

3 – نظرية جسبرسن الذي طالب بدراسة وافية للغة الطفل، ولغات القبائل البدائية، ودراسة تاريخية للتطور اللغوي. كل ذلك من أجل التوصل إلى معرفة كيفية نشأة اللغة الإنسانية الأولى وفق منهج علمي

4 – نظرية فندريس : الذي يرى أن اللغة كانت لدى الإنسان الأولى انفعالية محضة

5 – نظرية النشوء والتناسل: وترى هذه النظرية أن اللغة نشأت بالطفرة وبشكل تلقائي، فتفترض أن اللغة نشأت متكاملة في لحظة معينة ثم أعقبها التوالد والتكاثر.

ونرى كما يرى عدد من الباحثين، أنه لا توجد نظرية واحدة يمكن أن تفسر نشأة اللغة الإنسانية وأنّ ثلاث نظريات متكاملة يمكن أن تفسر ذلك. فالله سبحانه وتعالى أهل الانسان وأعطاه القدرات الخاصة، فألهمه لكي ينطق وينشئ اللغة.

وبهذه القدرة استطاع الإنسان الأول أن يضع كلماته وجمله الأولى، بالإصغاء والملاحظة والتقليد، لما يوجد حوله في الكون، ولما تقدم الإنسان، وارتقى في التفكير، بدأ بوضع كلمات جديدة بالتواطؤ والاصطلاح الذي ما زال مستمرا إلى يومنا هذا، بل إلى قيام الساعة.